تقـــــديم

هذا كتاب علم وتعليم ، أراد به مؤلفه إلى أن يعرض فى وضوح وجلاء ، أزمة الضمير الأوربى فى عصر من أخطر عصور الانتقال . وهو العصر الذى يختم طور النهضة الأوربية الحديثة ، ويبدأ فى الاعداد لطور الثورة الفرنسية التى لم تغير حياة أوربا وحدها ، وإنما غيرت معها حياة الانسانية كلها .

والناس جميعاً يعلمون أن النهضة الأوربية الحديثة . قد أخرجت أوربا من حياة القرون الوسطى ، إلى نوع جديد من الحياة ، لا يستأثر الدين المسيحى بالسيطرة عليه ، وإنما تشارك فى تكوينه عناصر أخرى ، يكون لها فى حياة الناس أبعد الأثر ؛ بل يكون لها فى الدين المسيحى نفسه أبعد الأثر . فالرجوع إلى أصول الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستكشاف أقطار من الأرض لم يكن العالم المتحضر يعرفها ؛ كل ذلك عرض العقل الأوربى لحركات عنيفه ، لم تلبث أن أحدثت آثارها ، فشعرت الضمائر بالحاجة إلى الحرية ، وطمعت العقول فى تحقيق هذه الحرية وجاهدت فى سبيلها جهاداً عنيفاً ؛ ونظرت الكاثوليكية فاذا هى وسط بين طرفين متباعدين أحدهما يطمح إلى الحرية ويحقق منها قدراً لا بأس به ، وهو الاصلاح الدينى الذى يتكشف عن البروتستنتية . والآخر لا يطمح ، وإنما يجمح حتى يتجاوز بحريته حدود الدين كلها . وإذا شىء من الوثنية القديمة يعود إلى الحياة فى كثير من القلوب والضمائر ، ويصبغ كثيراً من البيئات بشىء من الشك والاباحة والاستخفاف ، وقد تغيرت حياة الناس المادية بفضل استكشاف ما استكشف من أقطار الأرض ، فأتيح لهم من الثراء وأسباب الدعة ما كان ممنوعاً عنهم ، أو مقتراً عليهم فيه . ولا يكاد القرن السادس عشر يتقدم شيئاً حتى تكون الحياة الأوربية قد تغيرت تغيراً تاماً ، فظهرت فيها نزعات فى الأدب والفن ، وفى العلم والفلسفة ، وفى السيرة الفردية والاجتماعية ، لم

obeikandl.com

تكن موجودة من قبل . فاذا أشرف هذا القرن على آخره ، كان هذا النظام الجديد قد استقر واطمأن ، وألفه الناس وأصبحت له أصوله الثابتة وقواعده المقررة . وأخذ ينتج فى الأدب والفلسفة ، تلك الآثار الكلاسيكية الخالدة .
ولكن العقل ماض فى طريقه إلى البحث والدرس والاستقصاء والابتكار .
وإذا مضى العقل فى هذه الطريق ، فلا سبيل إلى أن يقف ، ولا إلى أن يحد سلطانه على الحياة مهما تختلف فروعها ؛ وما هى إلا أن يأخذ المثقفون فى عرض القيم المقررة للبحث والنقد ، كما عرضت للبحث والنقد فى أوائل عصر النهضة الحديثة . وإذا أزمة تطرأ على التفكير والشعور ، وعلى تقدير الأشياء والحكم عليها ، وعلى المقاييس التى تقاس بها القيم الفنية والأدبية والدينية .
وإذا صراع يثار بين القديم والجديد . وليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية فحسب ، وإنما هو هذه الثقافة وما نشأ عنها من ثقافة أوربية تقليدية . بل ليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية وما نشأ عنها من الثقافة الحديثة ، وإنما هو هذا ومعه الحياة الانسانية كلها بما فيها من نظم السياسة والادارة ، ومن أصول الأخلاق والاجتماع . كل شىء موضوع للشك .
وكل شىء عرضة للنقد ، وكل شىء صالح للبحث والدرس ، وكل شىء قابل للتغيير والتبديل .

وهذه الأزمة هى التى اتخذها الأستاذ بول هازار ، موضوعاً لكتابه هذا الرائع الرفيع . فهو يقتطع من الحياة الأوربية ثلث قرن من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، ويتخذ حياة أوربا العقلية فى هذه القطعة الصغيرة من الزمن موضوعاً لبحثه ، لايدرسها فى فرنسا وحدها ، وإنما يدرسها فى أوربا بأكملها ، مستقصياً مستقرئاً ، موازناً معارضاً ، مستنبطاً بعد هذا كله ما يصل إليه من الاحكام ، عارضاً عليك فى أثناء هذا كله ، نصوصه التى اعتمد عليها ومصادره التى رجع إليها .

ومن أجل هذا قلت إن هذا الكتاب ، كتاب علم وتعليم ، تقرأه فتظهر بفضل قراءته على الحياة الأدبية ، بل على الحياة العقلية كلها فى أوربا كلها ، وهو من هذه الناحية كتاب علم ، لاأعرف له نظيراً فيما قصد إليه من البحث والدرس ، ومن النقد والتحليل . وهو من هذه الناحية إيضاً كتاب ينتفع به المثقفون جميعاً ، مهما تكن ثقافتهم ، ومهما يكن نشاطهم فى هذا الفرع

oberkandi.com

أو ذاك من فروع الحيـاة . ولكن للكتاب ناحية أخرى ، لعلهـا أن تكون أعظم خطراً من هذه الناحية ، فهو كتاب تعليم وتوجيه ورسم لمناهج البحث والاستقصاء . يقرأه المتخصصون فى تاريخ الحياة العقلية ، فيتعلمون منه كيف يتأتى الباحث هذا اللون من ألوان التاريخ ، ويتعلمون منه أن الحياة العقلية لا تؤرخ بالقرون ، ولا بالأعوام ، ولا بما يكون من سقوط دولة وقيام أخرى ، ولا بما يكون من شبوب الحروب حين تشب ، ومن عقد الصلح حين يعقد . وإنما هذه كلها وأشياء أخرى غيرها ، لها آثارها المختلفة فى حياة العقل والشعور ، دون أن تكون هى المقياس الذى تقسم به ، وتقاس إليه حياة العقل والشعور .

فالذين يؤرخون لأدب أمة من الأمم فى قرن من القرون ، يتجوزون فيما يحددون لبحثهم من هذه العصور . فالقرن السابع عشر الفرنسى مثلا ، لم يبتدئ بالضبط سنة ستمائة وألف حين يقاس إلى الحياة العقلية ، وإنما ابتدأ قبل هذه السنة بوقت يقصر أو يطول ، لا سبيل إلى تحديده الدقيق ، وإنما يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفن . وهذا القرن لا ينتهى سنة سبعمائة وألف بالضبط ، وإنما ينتهى قبل ذلك بوقت لا سبيل إلى تحديده تحديداً دقيقاً بل يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الشك فى الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفن . وقل مثل هذا بالقياس إلى الآداب الأخرى مهما تكن ، فللحياة العقلية خصائصها وظواهرها التى ليست هى موقوفة على ما ألف الناس أن يتخذوه حدوداً للتاريخ من الخطوب والأحداث .

وللكتاب ناحية ثالثة ليست أقل خطراً من هاتين الناحيتين . فهو نموذج رائع للأدب المقارن ، ودراسة الأدب المقارن بدع جديد عرفته أوربا فى أواخر القرن الماضى ، وتقدمت به خطوات واسعة قيمة ، وأخذنا نحن نعرفه منذ أعوام ، أو قل أخذنا نحن نسمع به ولا يكاد أكثرنا يحقق معناه فضلا عن أن ندرسه ونتعمقه وننتج فيه إنتاجاً قيماً على شدة حاجتنا إليه ، لتعقد الصلات بين أدبنا العربى وبين الآداب الأجنبية المختلفة قديماً وحديثاً .

فهذا الكتاب دروس رائعة فى الأدب المقارن ، يعلم المتخصصين فى التاريخ الأدبى كيف يتتبعون الظاهرة الأدبية المعينة فى الشعوب المختلفة ، بل فى

البيئات المختلفة من الشعب الواحد ، وكيف يشخصون هذه الظاهرة تشخيصا دقيقاً ، وكيف يقيسونها إلى أمثالها فى الشعوب المتباعدة والبيئات المتباينة وكيف يستخلصون من هذا القياس أحكاماً أدبية لها دلالتها الخطيرة على ما يكون بين الشعوب من تباعد وتقارب ، ومن تشابه وتنافر فى الطبيعة والمزاج . فالذين يريدون أن يعلموا يجدون فى هذا الكتاب علماً كثيراً غزيراً ممتازاً . والذين يريدون أن يتعلموا مناهج البحث فى التاريخ الأدبى ، والذين يريدون أن يعرفوا طرائق الدرس للأدب المقارن ، يجدون فى هذا الكتاب أبرع تعليم وأروع توجيه .

ويعجبنى أن يقرأ الناس وأن يفهموا ما يقرأون فى هذه الظروف التى تحيط بنا ، والتى تصد الناس عن القراءة ، ولا سيما القراءة القيمة ، وتعجلهم عن الفهم ولا سيما الفهم النافذ العميق ، ويعجبنى إذا قرأ الناس وفهموا واستمتعوا بالقراءة والفهم ، أن تكون قلوبهم كريمة ونفوسهم سخية ، وأن يدفعهم ذلك إلى أن يشركوا الناس معهم فيما وجدوا من لذة المعرفة ومتعة الفهم والذوق .

من أجل هذا لم أكد أصدق حين أنبئت بأن أديبين مصريين ، قد فرغا فى هذه الأيام لقراءة هذا الكتاب وفهمه واساغته . فلما بلغا من ذلك ما أرادا كرها أن يستأثرا بالمتعة من دون قراء العربية ، فتكلفا أعنف الجهد وأعظم المشقة لنقله إلى لغتنا العربية . لم أكد أصدق ذلك حين أنبئت به . فنحن نحيا فى هذه الأيام حياة قوامها الكسل والأثرة والانصراف عن جد الأمر إلى سخفه ، وعن عسير الأمر إلى يسيره . ولكنى رأيت الكتاب بين يدى مترجماً حسن الترجمة ، فاستبشرت واطمأننت إلى حسن الظن بالمواطنين وصدق الرأى فيهم ، وإلى الثقة التى لم تفارقنى قط بأن الخطوب قد تلم ، وبأن النوائب قد تنوب ، وبأن الأحداث قد ترهق الناس من أمرهم عسراً ، ولكن جذوة الثقافة العالية والمعرفة الرفيعة ستظل دائماً حية قوية ، تشيع فى القلوب والنفوس والعقول حرارة ونوراً . وأنا رجل شره إلى العلم مسرف فى الطموح ؛ لا أعرف للطمع حداً حين يتصل الأمر بالثقافة والمعرفة ، فلم أكد أحمد للأديبين الكريمين ما بذلا من جهد ومال فى ترجمة هذا الكتاب ونشره ، حتى أغريتهما بترجمة كتاب آخر للمؤلف نفسه موضوعه التفكير الأوربى فى

الثامن عشر ، وأعترف بأنى لم أحتج معهما إلى شديد إغراء . فقد
.ابا للدعوة راضيين ، وأقبلا على العمل مشغوفين به ، محتفلين له ،
مستعدين أحسن استعداد لاحتمال ما سيكلفهما من مشقة وعناء .

فلهما شكرى خالصاً . وعليهما ثنائى صادقاً ، وما أشك فى أنهما سيظفران من كل قارىء بمثل ذلك الشكر وهذا الثناء .

طه حسين

obeikandl.com

مقـــــــدمة

يا للتناقض ! يا للانتقال الفجائى ! تدرج السلطات والطبقات ، طاعة القوانين ، النظام الذى تتكفل السلطات بتحقيقه ، المذاهب التى تنظم الحياة بحزم : ذلك ما كان يحبه رجال القرن السابع عشر. الاجبار ، السلطة ، المذاهب: ذلك ما كان يبغضه رجال القرن الثامن عشر ، الذين خلفوهم مباشرة . الأولون مسيحيون ، والأخيرون خصوم المسيحية ؛ الأولون يؤمنون بالحق الالهى ، بينما الأخيرون يؤمنون بالحق الطبيعى ؛ الأولون يستطيبون العيش فى مجتمع ينقسم إلى طبقات غير متساوية ، والأخيرون لا يحلمون إلا بالمساواة . إن الأبناء يتندرون على الآباء ، ظانين أنهم سوف ينهضون باصلاح عالم ، لا يتوقف إصلاحه إلا على مجيئهم : ولكن الغليان الذى يثير الأجيال المتتابعة لا يكفى لتفسير تغير سريع قطعى مثل هذا التغير . كانت أغلبية الفرنسيين تفكر كما فكر بوسويه ؛ وبغتة ، فكر الفرنسيون كما فكر فولتير : إنها لثورة .

ولكى نعرف كيف وقعت هذه الثورة ، قمنا بالبحث فى أراض غير مطروقة . فقد درسنا القرن السابع عشر طويلا فيما سبق ، واليوم نعكف على دراسة القرن الثامن عشر . وفى حدودهما الفاصلة تمتد منطقة وعرة ، مبهمة ، نأمل أن نجد فيها بعض الكشف والمغامرة . لقد جسنا خلالها ، واخترنا لتحديدها تاريخين غير قطعيين : من جهة حول عام ١٦٨٠ ، ومن جهة أخرى ١٧١٥ .

ولقد قابلنا سبينوزا ، الذى بدأ نفوذه يشتم فيها ، ومالبرانش ، وفونتنل ، ولوك ، ولبنتز ، وبوسويه ، وفينلون ، وبايل ، إذا اقتصرنا على ذكر الأعلام ، ودون تحدث عن ديكارت الذى لا يزال يسكنها . إن أبطال الفكر هؤلاء ، كانوا عاكفين — كل حسب طبعه وعبقريته — على البحث فى المسائل التى ما برحت تشغل أذهان الناس منذ الأزل ، كما لو كانت مسائل جديدة ؛ مثلا : وجود

الله وطبيعته ، والكائن والمظاهر ، الخير والشر ، الحرية والقدرية ، حقوق السلطان ، تكون الحالة الاجتماعية ، والمسائل الحيوية كافة . فماذا ينبغى أن نعتقد ؟ وكيف ينبغى أن نسير ؟ وكان هناك سؤال ، سؤال طالما حسب الناس أنه أصبح أمراً مفروغاً منه ، يعود دائماً من جديد : ما هى الحقيقة ؟ . Quid est Veritas ?

فى الظاهر كان العصر الكبير يمتد فى كل عظمته وجلاله ، وما كان على المفكرين والمؤلفين إلا أن يقلدوا الروائع الأدبية التى ظهرت بوفرة من قريب . واستعرت بينهم المنافسة ، فهذا يؤلف المأساة على منوال راسين ، وذلك يؤلف الملهاة على منوال موليير ، وغيرهما يؤلف القصص على منوال لافونتين ؛ وانتقد النقاد الوجهة الأخلاقية فى الملاحم الشعرية ، والتوسل بأسرار المسيحية ؛ ولم يكفوا أبداً عن امتداح قاعدة الوحدات الثلاث(١) : فخر الفن . لكن فى البحث اللاهوتى السياسى *Tractatus theologico-politicus* وفى « علم الأخلاق » *Ethique* وفى « المقال عن الادراك الانسانى » *Essay concerning human understanding* وفى « تاريخ تبدل الكنائس البروتستانتية » *Histoire des variations des églises protestantes* وفى « القاموس التاريخى والنقدى » *Dictionnaire historique et critique* وفى « جواب على أسئلة قروى » *Réponse aux questions d'un Provincial* استعر جدال لم تعد هذه المشاغل التافهة تبدو بازائه إلا كلعبة أطفال أو عجزة ضعاف . فالأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كان الناس ما برحوا مؤمنين ، أم فقدوا الايمان ؛ ما إذا كانوا يذعنون للتقاليد أم يتمردون عليها ، ما إذا كانت الانسانية ستواصل السير فى طريقها ، واثقة بقادتها أم تختار رؤساء جدداً ليقودوها نحو جنات جديدة . كان العقليون والدينيون كما يقول بايل ، يتنازعون الأرواح ويتواجهون فى معركة شهدتها أوربا المفكرة بأسرها .

جعل المهاجمون يتنصرون شيئاً فشيئاً . لم يعد الالحاد منفرداً مستخفياً ، بل أخذ يكتسب الأشياع حتى أصبح فخوراً متغطرساً . ولم يعد الانكار متخفياً ، بل انكشف وانتشر . ولم يعد العقل حكمة متوازنة ، بل أصبح جرأة انتقادية . وأصبحت المعارف المألوفة ، مثل الارتضاء الشامل الذى يثبت وجود الله ،

---

(١) أنظر ص ٨٨ .

obeikandi.com

والايمان بالمعجزات موضع شك وإنكار . لقد نفى الناس ما هو إلهى إلى طبقات سماوية غير معروفة ، يستحيل إدراكها ؛ أصبح الانسان ، الانسان وحده ، مقياس كل الأمور ؛ إذ كان بذاته علة بدئه ونهايته . ظل رعاة الشعوب مدة طويلة يملكون السلطة بين أيديهم ، واعدين باستتباب الطيبة ، والعدل ، والمحبة الأخوية على وجه الأرض : لكنهم لم ينفذوا وعدهم هذا ، بل انهزموا فى المعركة الكبرى ، المعركة التى كانت الحقيقة والسعادة جائزتها : إذن كان ينبغى أن ينسحبوا . كان ينبغى أن يطردهم الناس ، إذا لم يقبلوا الانسحاب مختارين . فكر الناس أنه يجب تدمير البناء القديم ، الذى عجز عن حماية الأسرة البشرية الكبرى ، وهكذا أصبحت المهمة الأولى عملا تدميرياً . وكانت المهمة الثانية عملا إنشائياً من جديد ، وتجهيزاً لأسس المجتمع المستقبل . واقتضت الضرورة الملحة بناء فلسفة — لكيلا يقع الناس فى الشك ، نذير الفناء — فلسفة تترك الأوهام الميتافيزيقية الخادعة ، وتدرس الظواهر التى يمكن أن تتوصل إليها أيادينا الضعيفة ، والتى ينبغى أن نقنع بها . اقتضى الأمر إقامة سياسة دون حق إلهى ، ودين بلا أسرار ، وأخلاق بغير مذاهب . اقتضى قسر العلم على ألا يكون تسلية ذهنية ، بل قوة قادرة على قهر الطبيعة . خيل إلى الناس أنه لا شك فى وصولهم — بفضل العلم — إلى السعادة ، وأن الانسان قد ينظم هذا العالم المهزوم فى سبيل راحته ، ومجده ، ورفاهة مستقبله .

ولن يعيينا أن نرى فى هذه الصورة ، روح القرن الثامن عشر . ولقد أردنا ، على التحقيق ، أن نبين أن صفاته الأساسية هذه ، إنما ظهرت فى وقت أقدم جداً مما يتصوره الناس عادة ؛ وأن تكوينها قد اكتمل فى عهد كان لويس الرابع عشر لا يزال يتمتع فيه بكل عظمته الساطعة ، وأن كل الأفكار التى كانت تبدو ثورية نحو عام ١٧٦٠ أو حتى عام ١٧٨٩ ، إنما كانت فى الواقع قد أفصح عنها من قديم ، نحو عام ١٦٨٠ . وقتئذ وقعت أزمة فى الضمير الأوربى ؛ وفيما بين « النهضة » — التى أنشأتها — والثورة الفرنسية التى أعقبتها ، لا توجد أزمة أهم منها فى تاريخ الأفكار . لقد حاول « الفلاسفة » الجدد أن يبدلوا مدنية تستند على فكرة الواجب : الواجبات نحو الله ، والواجبات حيال الملك ، — بمدنية تقوم على فكرة الحق : حقوق الضمير الفردى ، حقوق النقد ، حقوق العقل ، حقوق الانسان والمواطن .

خمسة وثلاثين عاماً من الحياة الفكرية لأوربا ، كان من المحال أن نحددها في الزمن دون حسبان للسنين التي تلت هذه الحقبة على الأخص ، بل التي سبقتها كذلك — ودون حسبان لتلك المحاكم التي استدعت الانسان نفسه ، لتستجوبه عما إذا كان قد ولد بريئاً أو مذنباً ، وعما إذا كان يؤمن بالحاضر أو بالأبدية ، — ودون حسبان لتلك الأفكار الحية الخالدة ذات القوة الهجومية أو الدفاعية ، التي بلغ من شدتها أن تأثير ذلك الماضي علينا لم ينقطع حتى الآن ، وأننا لا نزال نواصل ، في المسائل الدينية ، والفلسفية ، والسياسية والاجتماعية ، تلك المعارك الكبيرة الحامية التي لم يخمد لها بعد أوار — ودون حسبان للمؤلفات الضخمة التي كتبها في سخاء غريب ، أناس لم يهتموا بكمال الشكل اهتمامهم بوفرة البراهين وفاعليتها — دون حسبان للمؤلفات الغامضة ، اللاهوتية والفلسفية — ثم تعدد الصلات بين البلد والبلد ؛ سريان الأفكار ، والعدوى والتأثير ، وغرائب الأحداث التي يصعب تفسيرها في بيئتها المحلية ، ويقتضي الأمر زجها في المحيط الأوربي لكي يسهل تفهمها ، والتوجيهات التي ينبغي ، ويشق التماسها في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، والفواصل الجبلية والطرق والدروب ؛ والشخصيات التي ينبغي أن ترسم ، والسيم التي ينبغي أن نفهمها على حقيقتها ، في غضبها أو في ابتهاجها : ما من شك في أن هذا مشروع عسير التحقيق . ونحن لا نستميح لأنفسنا عذراً في محاولتنا التعرض لهذا المشروع . لأننا لا نجهل ما سيتبقى وراءنا من عمل ، ولا نجهل أن معرفة الشجرة تقتضي دراسة فروعها وجذورها أتم دراسة — ولكننا نعتقد أنه من المفيد أحياناً ، أن يشق المرء درباً مؤقتاً في الغابات الكثيفة(١) .

***

هناك أزمان شاعرية : يلذ للمرء في تناولها بالدراسة ، أن ينتصت إلى نغمها المنسجم ، وأن يستروح عبيرها الفواح ، وأن يستسلم لموسيقاها الحانية ، تحمله

(١) لقد نشرنا مقتطفات مختلفة من هذا الكتاب في أعداد ١٥ أغسطس ، ١٥ ، ١ سبتمبر سنة ١٩٣٢ من مجلة *Revue des deux mondes* وفي عددي اكتوبر وديسمبر ١٩٣٢ من مجلة *Revue de littérature comparée* وفي عددي ٢١ اكتوبر ، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ من مجلة *L'Europe centrale* وسيجدها القارىء هنا معدلة بعض التعديل .

إلى آفاق يعجز عن تصويرها اللسان : حيث لا تعود الدنيا إلا أنشودة عذبة . والزمن الذى ندرسه ليس من هذه الأزمان ؛ فقد جهل الجرس والايقاع ، وفسر معنى الشعر تفسيراً عكسياً ، ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر . ولكن القيم التخيلية والحساسة لم تتوار على حين غرة ، ولم يكف الناس عن الاستسلام لهوهم وأهوائهم فجأة دون تمهيد ؛ فقد سجلنا ، على النقيض ، استمرار حياة الأشكال والألوان ، ومعارضة القلب ، بجانب عمل العقل الصافى . فقيام الخشوعية piétisme هنا ، والركونية quiétisme هناك ، قد كشف لنا عن الأمانى والرغبات التى تجيش فى الأرواح القلقة ، التى لم يقنعها العقل ، بل كانت تبحث عن إله للمحبة . بيد أن هذه الروحانية نفسها قد ساهمت فى أزمة الضمير التى يتميز بها هذا العصر . فانها فضت التحالف بين الدين والسلطة ، وبافلاتها من رقابة الكنائس الأرثوذكسية ، وبنظرتها إلى الايمان كنفحة فردية ، اختيارية وطبيعية ؛ وبتقويضها دعائم النظام القائم ، قد قامت من جهتها بدور عنصر مجدد : وبالمثل فقد أدخل على المجتمع إذذاك بذرة من الفوضى ، بمواجهة أخطاء المدنية وجرائمها ، بفضيلة الرجل الهمجى البدائية .

بيد أن هذه السنين الشاقة ، الدسمة ، الحافلة بالجدال وبالقتال ، الزاخرة بالأفكار ، لها بالرغم من ذلك جمالها الخاص . وإذا نحن تتبعنا هذه الحركات الواسعة النطاق ، وشهدنا هذه الكتل من الأفكار تتفرق ثم تتجمع من جديد طبقاً لقوانين أخرى وأصول مستحدثة ، وإذا رأينا إخواننا من بنى الانسان يتلمسون فى شجاعة سبيلهم نحو المصير المجهول ، دون أن تثبط لهم همة أو يستسلموا لعائق أو غمة ، شعرنا بما شعروا به من انفعال . وإن فى عنادهم واستبسالهم لشيئاً من الجلال ؛ وإذا كان الشئ الذى يميز أوربا — كما سنبين فيما بعد — هو عدم قناعتها أبداً ، وتجديد بحثها عن الحقيقة والسعادة ، فان فى هذا المجهود لمحة من الجمال لا تخلو من مسحة من الألم . وليس هذا بكل شئ . فبدراسة نشأة الأفكار ، أو على الأقل ما انتابها من تبدل ، وبمتابعتها على طول طريقها ، فى بدايتها الضعيفة ، وفى طريقة تدعمها وتجرئها ؛ فى تقدمها وفى انتصاراتها المتتابعة حتى ظفرها النهائى — نصل إلى هذا الاقتناع العميق الوثيق ، وهو أن ما ينظم الحياة ويوجهها ليس هو القوى المادية بل هو القوى الفكرية والأخلاقية .